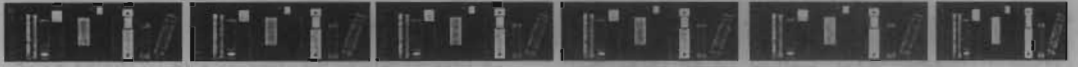


ملف العدد



تطور الفكر الجغرافي عند جمال حمدان

لم تكن الجغرافيا عند جمال حمدان هي قمة العلوم، ولكنها قمة الثقافة، فالمرء بدونها غير مثقف مهما فعل، وبها هو مثقف مهما قصر، ومن ثم كان منهجه إخضاع الجغرافيا للثقافة، بينما العلم البحت يخضع للثقافة للجغرافيا.

وهذا الكتاب يحوي عدة فصول من مؤلفات جمال حمدان التي تناول فيها الجغرافيا بالبحث والاستقراء، والتي تدلل على تطور فكره الجغرافي، وولعه بهذا العلم، وسعيه للارتقاء بطرائق تفكيره.

ويختتم المؤلف الكتاب بمقطوعات مأخوذة من مذكرات جمال حمدان الخاصة التي تناولت الجغرافيا من منظور فكري متطور وبأسلوب سهل ممتع.

الفصل الأول: ما هي الجغرافيا؟

اتهم أصحاب العلوم الأخرى أصحاب الجغرافيا باتهامات خطيرة تهدد ماهية علم الجغرافيا، فقالوا: كيف لعلم واحد أن يدرس في آن واحد كل الظواهر المتنافرة كالقبور والصخور والأديان والسكان والسلالات والعادات والسياسة والفراسة والغابات والغزوات؟

كانت الجغرافيا منطلق
جمال حمدان إلى رحاب العلوم
الواسعة، فكانت بالنسبة له
علماً خالداً؛ لأنه حتمي
ولا مفر منه.



● إعداد : الدكتور عبد الحميد صالح حمدان

● الناشر: عالم الكتب، ٢٠١١م

● عدد الصفحات: ١٥٦ صفحة

● عرض: محمد أمين

وآخر لتأثير التضاريس عليه، ولكن في كل هذه الفئات لا نجد أساساً موحداً لكل أنواع العلاقات المختلفة، فهذا لتأثير بيئة الجبال (أساس طبيعي)، وهذا لتأثير البيئة الزراعية (أساس اقتصادي حرفي)، وهذا لبيئة البحر المتوسط (منطقة محددة).

٤- أن هذا التعريف لا يمنح الجغرافيا تميزاً، فكل العلوم تدرس علاقة الإنسان بها، فالتاريخ مثلاً يدرس الأحداث ليفهم مجرى التاريخ عامة وعلم الاجتماع لا يمكنه تجاهل البيئة التي يقع فيها المجتمع.

وهناك تعريف رابع خاطئ يعتبر الجغرافيا علم التوزيعات، وأن هدفه توزيع الظواهر المختلفة على سطح الأرض. وهذا التعريف يحوي أخطاءً ثلاثة، وهي أن كل شيء على سطح الأرض له توزيع، ومن ثم فالجغرافيا يمكن أن تدرس وفق هذا التعريف توزيع المدارس الأدبية وتوزيع حقوق المصير في العالم، وبهذا يصبح العلم بلا حدود.

والخطأ الثاني في هذا التعريف هو أنه لا يعطي الجغرافيا وحدتها، فالتوزيعات تجمع ظواهر متنافرة بين صخور ومياه وهواء وتيارات ومحاصيل وعادات ولغات وأجناس. والتوزيع - في حد ذاته - لا يمدنا برباط مشترك من الاهتمام.

والخطأ الثالث في هذا التعريف هو أنه لا يمنح الجغرافيا استقلالها العلمي، فالتوزيع ليس حكراً على الجغرافيا، بل هو خاصية للأشياء، وكل العلوم الأولية كالجيولوجيا وعلم الحشرات تتسم بهذه الخاصية أيضاً.

ومن ثم، فالتعريف الأمثل للجغرافيا هو أنها علم الكورولوجيا المشتق من كلمة كور الإغريقية بمعنى المنطقة أو الإقليم. وعليه، فإن عمل الجغرافي هو مطالعة سطح الأرض المتفارق المختلف بطبيعته من رقعة إلى أخرى، فيستشف منها، ويتعرف على كل وحدة تفارقية ذات

أما الاتهام الثاني الذي وجهه أصحاب العلوم الأخرى، فهو أن علم الجغرافيا علم عالية على غيره وطفيلي؛ فهو يستمد مادته الخام كلها من العلوم الأولية المعنية.

وفرضت هذه الشكوك اهتماماً خاصاً وجدلاً حول منهجية الجغرافيا كعلم، وأسفر هذا الجدل عن تحديد ماهية الجغرافيا.

فقالوا: إن الجغرافيا هي علم الكوكب الأرضي من وجهة نظر فلكية، معتمدين على المعنى الحرفي اليوناني للكلمة، وهذا خطأ؛ لأن الجغرافيا لا تدرس الأرض ككوكب، وإنما تدرس سطح الأرض التي نعيش عليها في حدود ما نخبر في الغلاف الغازي.

قالوا أيضاً: إن الجغرافيا هي وصف الأرض، والحق أن الوصف ليس بعلم، فهذا المفهوم يقصر الجغرافيا على المطبوعات والخرائط، كما أنه يجردها من التحليل، ويجعلها تدعو إلى الذاكرة لا العقل.

والتعريف الثالث هو أن الجغرافيا هي علم علاقة البيئة بالإنسان، وهذا تعريف خاطئ أخطر من سابقه لأسباب، هي:

١- أن عزو السلوك الإنساني إلى البيئة يفرض نوعاً من القدرية الحتمية التي لا يؤيدها الواقع، والصواب هو دراسة السلوك الإنساني وتصنيفه إلى جذوره الجغرافية لتجنب هذا الخطأ.

٢- أن هذا التعريف لا يهتم بالظواهر الطبيعية والبشرية إلا في مدى علاقتها ببعضها البعض، ومن ثم فإنه يعتبر دراسة الطبيعة وسيلة لدراسة البشر؛ وحيث إن الطبيعة البشرية مشبعة بالعوامل الطبيعية، فإن ذلك يجبرنا إلى استبعاد الجغرافيا الطبيعية تماماً.

٣- أن هذا التعريف لا يحفظ لعلم الجغرافيا وحدته، فهو سيقود إلى تصنيف تأثيرات البيئة على الإنسان إلى فئات بحسب كل عامل طبيعي، فيكون هناك فصل لتأثير المناخ على الإنسان

**لم تكن الجغرافيا عند جمال حمدان هي
قمة العلوم، لكنها قمة الثقافة، ومن ثم
اعتمد منهجه على إخضاع الجغرافيا
للثقافة، بينما العلم البحت يخضع للثقافة
للجغرافيا**



الأنثروبولوجيا. ومن ثم فإن المواطن العادي يحتاج إلى الجغرافي ليعرف جوهر وطنه. والجغرافيا ليست علماً موسوعياً فضفاضاً وبحراً لا ساحل له، بل هي علم تكاملي بالضرورة يمثل الجسر الواصل بين العلوم الطبيعية والاجتماعية. وحتى إن بدت الجغرافيا علماً موسوعياً، فإنها في الجوهر علم العالم لا علم العلوم.

وليست الجغرافيا مجرد علم معقد دون إضافة، كما يتوهم البعض، فهي علم بسيط في جوهرها تكاد تقول: غريزياً أو فطرياً، كما أنها ليست علماً ناقلاً شمولياً؛ فالجغرافي قارئ كل شيء، ولكنه كاتب جغرافياً فقط، يأكل كل شيء، ولكن معدته لا تفرز إلا جغرافياً.

والناظر في طبيعة الجغرافيا الكاملة يجد أنها لا تحقق في شيء، كما تحقق في دراسة الشخصية الإقليمية، فلا تخضع الشخصية الإقليمية للقياس الإحصائي والرياضي، على الرغم مما تستند إليه من مادة علمية بحتة، لكن تطورها تطوراً موازياً لتطور الفرد يجعل دراستها فنية بقدر ما هي علمية.

ولكننا مع ذلك ندرك أن فن تناول المادة العلمية لا يكفي وحده للتشخيص الإقليمي، بل لابد كذلك من دراسة فلسفة المكان.

وليس غريباً هذا التناظر في الجغرافيا بين الفن والعلم والفلسفة؛ لأن الجغرافيا بطبيعتها

شخصية متميزة عن سواها، فيحددها ويحدد محتوياتها ومقومات تلك الشخصية وأسبابها. فمثلاً تعدد الزوجات حقيقة اجتماعية، لكنه يختلف من منطقة إلى أخرى، فهل لهذا الاختلاف قيمة جغرافياً، وهل ندرسه كأحد العناصر التي تساهم في تمييز المنطقة عما سواها؟ فإذا كانت الظاهرة غير راجعة إلى أصول جغرافية، فليس لها حينئذ قيمة جغرافياً.

الفصل الثاني: في الشخصية الإقليمية

من الطبيعي أن تكون الجغرافيا هي التعرف على شخصيات الأقاليم، وهي ما يعطي منطقة تفرداً وتميزاً بين سائر المناطق. هي باختصار روح الإقليم. ومن ثم فإننا نحتاج إلى سوبر جغرافيا لا تقف عند حدود وصف المكان بل تتعداه إلى فلسفة المكان.

بل إننا نذهب لأبعد من هذا وهو الوصول من آلاف التفاصيل ودقائق الجزئيات وركام المعلومات إلى الكليات العامة والمعادلات والضابطة والقوانين الأساسية الحاكمة.

والجغرافيا هي علم الخاص لا العام، وعلم تصويري لا تعقيدي؛ ومن ثم فلا قانون للإقليم، وإنما نحاول من خلال دراسته الوصول إلى معادلات شاملة تعد مفتاحاً للإقليم، وتختزل روح المكان فيه.

ومن الواضح أن دراسة الشخصية الإقليمية لا تقتصر على الحاضر، وإنما تتراعى بعيداً عبر الماضي وخلال التاريخ؛ لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن التعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم، وعلى التعبير الحر عن الشخصية الإقليمية.

ولهذا نجد أن البحث في الشخصية الإقليمية لم يكن من عمل الجغرافيين وحدهم، بل بحث فيه المؤرخون كثيراً، فالجغرافيا أكثر تنوعاً وغنى في المناهج والطرائق، وربما كانوا أرحب آفاقاً، حيث تجمع تلقائياً بين الزمان والمكان ابتداءً من الجيولوجيا حتى الأركيولوجيا، ومن الفلك حتى

فإن اجتماع المدن بدا علماً أمريكياً؛ بسبب انفجار حياة المدن في أمريكا أو توافر إمكانيات البحث فيها عن أي مكان آخر.

وعلى الرغم من أن جغرافيا المدن كانت قد بدأت تدرس المدينة من الداخل فإن اجتماع المدن هو الذي نفذ إلى قلبها، وحل تركيبه بكل تفصيل، وهو الذي أعطى لدراسته شكلها ومنهجها الأول والأخير.

٣- النضج:

ويمكن اعتبار الحرب العالمية الثانية نقطة التحول إلى مرحلة النضج وسن رشد جغرافيا المدن فاتسمت بخصائص تطور خمس، هي: استقلال المادة عن دراسات المدن في الميادين الأخرى، وتزايد قوانينها وأفكارها الكلية، ودخول الميدان التطبيقي، وظهور الكتب الأصولية في المادة (ما يعتبر دليلاً على استقرارها)، ودخول مرحلة التخصص التفصيلي.

والمدينة كغيرها من الظواهر ليست حكرًا خاصًا على الجغرافيا، بل هي موضوع دراسة علوم أخرى كثيرة، لكن الجغرافيا تنظر إلى المدينة على أنها شكل من السكنى، بينما ينظر إليها علم الاجتماع مثلاً على أنها طريقة حياة.

وبالنسبة لوظيفة جغرافيا المدن، فقد أخذت تلك الجغرافيا مؤخراً تخضع لفلسفة العلم السائدة التي تؤمن بأن العلم في سبيل الحياة والمجتمع لا العلم فحسب، وساعدهم على ذلك التوجه الأيكولوجي الرابط بين البيئة والإنسان.

أما تصنيفها، فيظل الخلاف حول جغرافيا المدن دليلاً على أن نضجها في مراحلها الأولية، وهناك مؤلفات كثيرة ناقشت تصنيفها، وهل هي تدخل ضمن الجغرافيا الاجتماعية أم السياسية أم البشرية.. إلخ؟

الفصل الرابع: من جغرافيا الإسلام

ليس بين أيدينا دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن الصورة الجغرافية الراهنة لتوزيع الإسلام في العالم. وعلى الرغم من أن كتب المستشرقين

علم متاخر غير متجانس في مادته الخام، فهي إذًا علم بمادتها وفن بمعالجتها وفلسفة بنظرتها.

والواقع أن دراسة الشخصية الإقليمية تبدأ حيث انتهت دراسة الجغرافيا التقليدية بالمعنى المدرسي المعروف، فالملاحظ أن الجغرافي التقليدي يدرس التضاريس والجيولوجيا والنبات والتربة، ولكنه يجد نمطاً من الحياة اليومية مرتبطاً بصميم البيئة الجغرافية، وهذه الحلقة المفقودة هي بالدقة روح المكان وجوهر الإقليم.

إذًا، فدراسة الشخصية الإقليمية لا تلغي الجغرافيا الإقليمية، وإنما تكملها وتصحح عيوبها.

الفصل الثالث: تاريخ جغرافيا المدن

مرت جغرافيا المدن بثلاث مراحل تقريبية هي النشأة والتكوين والنضج:

١- النشأة:

يعتبر أوتو شيلتر المؤسس الأول لجغرافيا المدن بمؤلفه "ملاحظات على جغرافيا المدن"، وساهم علم الإحصاء الجديد، ومن قبله الحساب السياسي القديم والديموغرافيا في إمكانية تكوين جغرافيا مدن، ثم جاء العقد الأول من القرن الحالي ليتسم باهتمام شديد بالمدن في مجالات عديدة كالهندسة والتخطيط والاجتماع والاقتصاد، وأخذت الجغرافيا تتشابك مع بعضها وتتداخل، فكانت عملية إخصاب متبادل تميز معظم العلوم في مراحلها الأولى.

وكما بدأت جغرافيا المدن من الاهتمامات الإقليمية العامة بدأ علم اجتماع المدن من صورة الفقر بين عمال المدن الصناعية الجديدة التي أثارها المصلحون في عصر الرأسمالية والتصنيع.

٢- التكوين:

تعتبر الحرب العالمية الأولى هي خط التقسيم بين مرحلة النشأة والتكوين، فكان أنطوان فاشيه أول من نشر في فرنسا دراسة لمدينة تفصيلية. وإذا كانت جغرافيا المدن قد بدأت ألمانية،

عمل الجغرافي يدور حول مطالعة سطح الأرض المختلف من منطقة إلى أخرى، والتعرف على كل وحدة فيها ذات شخصية متميزة عن غيرها، ومعرفة مقوماتها وأسبابها



إلا وبها عشرات المسلمين الذين يمثلون هذا الدين.

إذاً، فالإطار الخارجي للإسلام يصل شمالاً إلى أعلى الفولجا بالقرب من دائرة العرض ٦٠ شمالاً، ويطرأ جنوباً حتى نهاية أفريقيا عند الرأس على خط ٢٥ جنوباً. أما شرقاً فيمتد من خط طول ١٢٠ حتى خط ٣ غرباً عند الرأس الأخضر. وهذا يقرر أن مساحة الإسلام تبلغ ٩٥ درجة طولاً و١٤٠ درجة عرضاً تقريباً، أي ربع وثلاث محيط الأرض على الترتيب، أو ما يعادل نصف دورة من دورة الليل والنهار ونصف دورة من دورة فصول السنة على التوالي. ولا يفوق هذه الأبعاد من بين الأديان جميعاً سوى المسيحية.

وتمثل خريطة توزيع الإسلام هلالاً يتألف من قلب وجناحين: قلب قاري ضخم يمتد بلا انقطاع من حدود الصحراء الكبرى حتى وسط آسيا، وبعده يبدأ جناحان جزريان على شكل أرخبيل أو مجموعة جزر في غابة أفريقيا ومحيط آسيا. ومن هنا يمكن تمييز هلال الإسلام إلى قطاعين جوهريين واضحين: قطاع غربي وآخر شرقي.

وقبل دراسة هذين القطاعين لابد أن نستدرك أن الإسلام، وإن بدا في معظم رقعته متصلاً، فهو كسكان يتألف من أرخبيل ظاهره التأثير وجوهره الاتصال.

ويشمل القطاع الغربي من الإسلام أفريقيا وغرب آسيا، حيث يمثل العالم العربي في هذا

والدراسات الإسلامية تحفل بأكثر من مسح إحصائي وتخطيطي للمسلمين في قارة ما، فإنها ظلت خطوطاً عريضة أو إضاءات متناثرة تعتمد في الغالب على أرقام قديمة أو غير وثيقة أو مضللة في بعض الأحيان.

ولهذا، فنحن بحاجة إلى دراسة متكاملة لجغرافية الإسلام كغطاء روحي واسع الانتشار، بالغ الخطورة في الحياة اليومية على اختلاف مجالاتها على قطاع بشري كبير.

ويقدم هذا البحث أرضية عامة ونقطة ابتداء صالحة لمزيد من التعمق، لكنه مدخل لا يسد بالطبع الثغرة تماماً.

وليس من السهل حصر عدد المسلمين في العالم على وجه الدقة في ظل التهوين والتهويل اللذين تنتهجهما التقديرات الغربية، لكننا نستطيع القول: إن ١٥٪ من سكان هذا الكوكب مسلمون.

ولعل الإسلام هو أكثر الديانات الحالية نمواً من حيث العدد، وربما الفضل جزئياً في ذلك يرجع إلى الاستعمار في القرن الأخير، وخاصة في أفريقيا بما قدمه من تسهيلات حديثة ومواصلات سهلت انتشار الإسلام.

لكن دخول الاستعمار كان سبباً أيضاً في وقف انتشار الإسلام والتبشير في أفريقيا والهند مثلاً واضحاً على ذلك.

والإسلام يمثل الديانة الثالثة عددياً بعد البوذية والمسيحية، ثم تأتي الهندوكية، لكن المسيحية والإسلام يمسيان هما قطبا العالم المعاصر من بين الأديان السماوية الحقيقية.

وإن بدا الإسلام موضوعياً أضعف ناصراً وأقل جنداً، فإن هذا ليس سوى نمط توازن؛ إذ إن هذا الضعف لم يحدث سوى في القرن التاسع عشر، وقبل ذلك كانت رقعة الإسلام أوسع.

ومن حيث الرقعة والانتشار، فالإسلام دين عالمي أو كوكبي بلا جدال رغم بعض اتهامات له بالجزئية، وأنه دين أفريقاسي، فليست ثمة دولة

ومن ثم؛ لا ينبغي للجغرافي أن يشعر بالنقص تجاه العلوم الأخرى، فهي لا تقل مكانة وجدوى عن العلوم الطبيعية، لكنه ينبغي أيضاً ألا يتعاضم أمامها.

وليس المطلوب في الجغرافيا الآن هو اللوغاريتمات والمعادلات إنما المطلوب الجمالية، أي الجغرافيا كعلم جميل لسببين أولهما استحالة وجود تلك المعادلات بشكل كامل، وثانيهما أن الإحاطة بتكنيك كل العلوم العملية لن يفيد الجغرافيا نفسها.

فتعريف الجغرافيا هو جوهر فلسفة الجغرافيا، فلا بد من تعريف جامع مانع؛ لأنها علم انتقائي، فعلى أي أساس ستختار وتستبعد دون أساس منهجي؟

والجغرافي لابد أن يكون جغرافياً للأبد، وإلا فهو ليس جغرافياً إذا خرج عن حوزتها.

ولا يكون الجغرافي جغرافياً إلا إذا كان فيلسوفاً، ولا يكون جغرافياً إلا إذا كان من أصحاب البذل والعطاء. ولا تعارض بين النظريتين، وإنما تكامل متكامل الميكروسكوب والتلسكوب.

صحيح أنه لا علم بلا جامعة، ولكن العالم حينما يدخل الجامعة يصبح موظفاً، وهذا ليس مطلوباً للجغرافي.

أما المثقف، فهو الذي يتجاوز دائرة ذاته ليصل إلى المجتمع كله، والمثقف الجغرافي هو سيد المثقفين.

لكن من المفيد جداً وجود الجغرافي التقليدي المدرسي الجامعي إلى جانب الجغرافي غير التقليدي، فهذا موصول لذلك والعكس، والمطلوب دائماً ثورة جغرافيا.

وفي كل الحالات يجب أن تكون هناك تفرقة واضحة بين تاريخ الجغرافيا وقضايا ومشاكل ونظريات الفكر الجغرافي والمنهج الجغرافي. ■

القطاع قلب العالم الإسلامي النابض باعتباره مهد العقيدة وموطن المقدسات، ولا يتبقى من هذا القطاع الغربي سوى أفريقيا المدارية ومنطقة تمتد من البلقان إلى باكستان (تقع فيها تركيا وإيران)، إضافة إلى منطقة أخرى تمتد من الفولجا إلى سينكيانج (تقع فيها آسيا الوسطى).

أما القطاع الشرقي من الإسلام، فيفصله عن الإسلام في الغرب برزخ أرضي عريض يمتد على محور شبه جزيرة الهند وهضبة التبت. ويبدو هذا القطاع على الخريطة أرخبيلاً متقطعاً، إلا أنه سكانياً مكتظ للغاية؛ حيث إن به خمسي مسلمي العالم. ويشكل هذا القطاع الصين والهند وباكستان الشرقية وجنوب شرق آسيا.

الفصل الخامس: صفحات من الأوراق

الخاصة، الجغرافيا والجغرافيون

لقد ألفت التطورات التكنولوجية والمعلوماتية عبئاً ثقيلاً على الجغرافيا، فجعلت الجغرافي مضطراً للخوض في تلك التفاصيل من باب التلصص لا التخصص. صحيح أن كل يوم يزداد فيه العالم تقارباً وتلاصقاً وتوحداً، لكن حجمه وعبئه الجغرافي يزداد ضخامة.

وميزة وقوة الجغرافيا هي أنها تعتمد على التقسيم المكاني الذي يتبعه تصنيف الظواهر وفك شفرتها وإزالة إبهامها، فتصبح واضحة في الذهن، وتصبح الجغرافيا علمية فنية حينئذ.

وتتسم الجغرافيا بأنها تقدم الصورة والعملية (الميكانيزم) تقدم الصورة للمتعلم والمثقف أكثر من الميكانيزم، لكنها تقدم الأخير أيضاً لكونه يلعب دوراً ثانوياً في العلوم الاجتماعية كالاقتصاد والسياسة، وبهذا فإن الجغرافيا تحتكر الصورة والميكانيزم؛ لأنها تعكس العلوم الطبيعية التي يظل فيها الميكانيزم غاية.

وهي قمة العلوم، ولكنها قمة الثقافة، فالمرء بدونها غير مثقف مهما فعل وبها هو مثقف مهما قصر.